## النص الأدبي من نظرية الأدب المقارن نحو نظرية التناص

**أ/محمـــد فيصل معاميـــر**
**قسم الأدب العربي**
**كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية**
**جامعة محمد خيضر – بسكرة**

**ملخـــص:**

النص الشعري تراكم معرفي يتراوح بين النظام و الفوضى، و بين الوعي و اللاوعـــي، وهو مضمار معرفي معقد. والتيار المعرفي أخذ و عطاء، اتصال و استمرار لا يعـــرف الانقطاع و الانفصام، و هو لبنة من هذا الطود الشامخ الذي يدعى ( الاداب العالمية) التي تقوم على علاقة التناغم و بناء الجسور الحوارية فيما بينها عن طريق التـــأثر و التـــأثير ببغضها و في بعضها. و الاصل في هذا يرجع الى وحدة الجـــوهر الإنســـاني و خلـــود العواطف البشرية و تشابهها رغم التباين و الاختلاف بين الناس .

**Résume**

Le Texte poétique est l'accumulation de connaissances entre le système et le chaos, et de la conscience et l'inconscient, un domaine complexe de connaissance. Le courant de la connaissance est un appel d'offre ,de contact et de suivi sans ambigüités .C'est un édifice glorieux nommé (Littérature universelle ), qui est basé sur la relation d'harmonie et de dialogue pour construire des ponts entre elles à travers l'impact et l'influence entres les uns et les autres .Et l'origine de cette unité en raison provient de l'essence et de l'immortalité des émotions humaines et ses similitudes malgré les différences, en dépit de la disparité entre les personnes.

تـــــأسيـــس:

إننا- إذا انطلقنا- مع (رولان بارت) في رده لنظرية المحاكاة في الأدب ورفضه إياها بحجة أن المحاكاة تفسر الأدب على أنه انعكاس يشبه المرآة لحقيقة قائمـــة ســـلفا، وتلك ليست صفة الأدب، لأن الكاتب- إنما يكتب لغة استمدها من مخزون معجمي له وجود في أعماقه.(1)

إننا -إن فعلنا ذلك لم يبق أمامنا سوى التعلق بأهداب نظرية التناص التي جاءت بوصفها بديلا لنظرية المحاكاة في الدراسات النصوصية المعاصرة.

هذا بالإضافة إلى أن العالم اليوم يمور بأمواج عاتية من التقارب والتداخل المـــؤديين إلى التفاعل والمثاقفة يجعلنا نشدد على بعض المفارقـــات بمـــا أننـــا نجـــد أن مفهـــوم "Acculturation"(2) يصلح أكثر من غيره للإجابة عن وضعيات في التفاعل الثقـــافي وخلافه بين الجماعات والنصوص. تحتاج هذه الوضعيات وتتطلب سبيلا فـــي درســـها يتعدى الإطار "المقارن"، فهناك وضعيات يعايشها العالم كمـــا عاشـــها ويعيشـــها عـــالم العربية. وقبل ثقافتنا وروايانتا وأشعارنا نتسم بالتفاعل البين مع ثقافات وسلوكات أجنبية. يصح هذا في علاقتنا بغيرنا كما بعلاقات غيرنا بثقافاتنا؛ أي ما يحتاج إلى سبيل علمـــي في المقاربة يضع حدا لـــ: "المقارنة" التي تقترض وجود نص "أول" على أنه المؤثر على غيره، وهو -غالبا- النص الغربي، ووجود نص "ثان" على أنه الخاضع للتـــأثير، وهـــو النص غير الغربي غالبا؛ يضاف إلى هذا أن شروط التفاعل باتت صعبة الوصف نظرا لوفرتها ولحذاقة الأدباء والمبدعين في إخفاء معالم التأثر، ما يدعونا إلى اعتماد مفهـــوم آخر قابل لتفكيك وضعيات التفاعل، وهو ما يوفره مفهوم "التناص".(3)

وإذا كانت نظرية "التناص" تربطها ونظرية الأدب المقارن" علاقة شبه موحدة هي علاقة التأثير والتأثر، فإنها تنفرد عنها بشموليتها؛ لأن نظرية التناص تضم الموروث الإنساني السابق والمزامن للنص المكتوب بما فيه الأدب المقارن نفسه بقطع نظر الإهتمام بالصلات التاريخية واختلاف اللغات. لا شك أن الأدب المقارن ونظرية التناص قد انبثقا

من تقاطع واحد هي علاقة التأثير والتأثر لما توحي به لفظة "تأثير" من علاقة مباشرة تدل على أن نصا معينا لا يكتب ما لم يكن صاحبه قد اطلع قبل كتابته على نص غيره.(4)

غير أن التناص كما يذهب كل من (كورتيس Courtes) و(جريمــاسGrimas) يقوم على جملة من الإجراءات التي بإمكانها أن تصبح وسيلة للتعبير المنهجي لنظريــة التأثير التي قامت على أساسها أبحاث الأدب المقــارن(5) ؛ ذلــك لأن المقارنـــة بــين النصوص والموازنة بينها لا تقف عند حدود الأدب المقارن، وإنما تتعداها إلى نظريــة النصوصية، وبخاصة إذا وضعنا بالاعتبار أن الأدب المقارن لا يعطــي أدنـــى اهتمـــام لتفاعل النصوص في الأدب القومي الواحد، فليس من الأدب المقارن في شئ ما يســاق من موازنات داخل الأدب القومي الواحد سواء أكانت هنــاك صــلات تاريخيــة بــين النصوص المقارنة أو لا، فالموازنة بــين (كــورني Corneille) و(راســين Racine) يتخلى عنها مؤرخ الأدب المقارن(6)، وهذا شرط من شروط المقارنـــة فـــي المدرســـة الفرنسية التي تهتم بتقاطع نص معين مع نص آخر بلغـــة مخالفـــة وإثبـــات الصـــلات التاريخية، بينما التناص يدرس تداخل نص مع نصوص أخرى لا متناهية من الثقافـــات المختلفة أو في إطار الثقافة الواحدة.

وهذا ما جعل (جوليا كريستيفا) تؤكد الفصل بين الأدب المقارن ومفهوم التفاعل النصي، وحين سئلت عن أهمية التفاعلات النصية في الكشف عن النصوص كان ردها: إن التناص لا يمكن أن يودي إلى المقارنات بين هذه النصوص..لأن النص يؤكد قيمتـــه في كثافته ومبادلته النصوص داخل النص تجعل منه نصا جامعا(7). مـــا يجعـــل الأدب المقارن في المدرسة الأمريكية أقرب إلى تمثل مفهوم التناص من المدرســـة الفرنســـية، لكونها تركز على الرؤية الداخلية للنص المقارن دون إثبـــات علاقـــة التـــأثير والتـــأثر واختلاف اللغة. ومن هنا تجاوزت نظرية التناص من التحليل الشكلي للنص وأثبتت توحد الاجناس الأدبية.

وقد كان لها الفضل والمزية في كسر الحدود بين الاجناس الأدبيـــة، مـــا جعـــل (جيرار جينيت) يعيد قراءة نظرية الاجناس منذ أيام (أرسطو) لـــيخلص إلـــى أن قـــدر الكتابة هو التوحد أو ما سماه النص الجامع (معمارية النص L'architexte).(8)

وإذا كان النص هو صفة يتجلى من خلالها نسج الكلام باللغة، فإن التناص هـــو تبادل التأثر بين الكتاب (ولا ينبغي أن يتداخل هنا موضوع الأدب المقارن الذي يبحـــث في أصول الأفكار على وجه الثبوت...) كتبادل التأثر بين (فلوبير وبروست كما يـــرى (رولان بارت)(9) وتبادل التأثير بين الحريري والهمذاني؛ حيث من المستحيل أن يعيش نص ما ويحيا خارج نصوص سبقته أو عاصرته، وسواء أكان هذا النص هو الجاحظ أم طه حسين أم شوقي أم الشابي...فإن الثابت هو أن هذا ا لنص نسيج مـــن نـــص مـــا أو نصوص ما، فكأن النص الإبداعي الجديد هو –أبدا– قائم على أنقاض نصوص أخـــراة انقرضت في ذاكرة التناص؛ فهي –كما يعبر بارت– تضمين بغير تنصيص.

ولقد أشار (عز الدين المناصرة) إلى الاهلية النظرية لمفهوم التناص الناشئ فـــي الدراسات اللسانية عندما قال: "إن مقولة التناص أكثر موضوعية في تناول المقارنة بين الشعوب"(10). ولكن من دون طرح للمسائل المستجدة في حاضر الدراسات "المقارنـــة" ومن دون أن يجعل لهذه المفاهيم الداخلة على الأدب المقارن أي "المثاقفة" و"التناص" أية قابلية إجرائية. وترى باحثة عربية معاصرة أنه –وعلى أية حال– فإن ســـبيل التنـــاص يتعدى هذا الإطار القديم للمشكلة؛ لأنه يتحقق أساسا من أحوال التفاعـــل فـــوق مســـاحة النصوص. إلى هذا، فإن إدراج مسألة "المثاقفة" تحت باب "النقد المقارن" لا يفي بالمراد أبدا وهو الانتباه إلى واقع التفاعل النصي الذي يقوم بين نصوص واقعة ضـــمن اللغـــة الواحدة لا بين لغتين مختلفتين كما هو عليه الحال في الادب المقارن في صيغته التقليدية كما نستطيع أن نزيد على هذين الاعتراضين اعتراضا ثالثـــا وهـــو أن هـــذا المنـــزع "المقارن" يقوم على موازاة أو تقابل أو مقارنة بين نصين، فيما يسعى الفهـــم "التناصـــي" إلى تبين حقيقة التفاعل النصي أو "التنصيص" في النص نفسه، على أنـــه يشـــير إلـــى نصوص أخراة واقعة ضمن نصوص ثقافته أو خارجها وفق علاقات من التفاعـــل قـــد

تكون استعادة أو محاكاة أو تحويرا ساخرة لهذه النصوص الأخراة التي يتم "تملكها"...(11)

وعن مستقبل الأدب المقارن فقد تسائل بعض الباحثين المعاصرين ومنهم(سوزان كاسنيت)عن ذلك ووجدوا أنه غدا من الضروري التساؤل حول إمكانية استمرار الأدب المقارن كما هو. وبخاصة أن الشواهد بدأت تترى مؤكدة أن ثمة تحولات نظرية وتفريعات منهجية وحقلية قد تعني انحلال الأدب المقارن في حقول جديدة.

من ذلك تنامي ما يعرف الآن بـ" الدراسات الترجمية" أو الدراسات المتصلة بالترجمة التي تثير أسئلة هامة حول دور الترجمة في الاتصالات عبر الثقافية على نحو يجعلها على قدر كبير من الاستقلال عن الدراسات المقارنة. ومن ذلك أيضا ما يعرف الآن بـ"الدراسات ما بعد الاستعمارية أو ما بعد الكولونيالية"والمقصود بها الدراسات التي تبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمرا وما يقع خارج الغرب من دول وقعت تحت طائلة الاستعمار، مع ما تتضمنه تلك الدراسات من تحليل للنصوص الأدبية وغيرها للكشف عن استراتيجياتها الخطابية على النحو الذي يبرزه(إدوارد سعيد) في كتابه"الاستشراق"1978.(12)

**الهوامش:**

[1]. عبد الله الغذامي،الخطيئة والتكفير، مرجع سابق، ص 323.

[2]. عز الدين مناصرة،المثاقفة والنقد المقارن:منظور إشكالي،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط1996،2،ص12

[3]. مجدي وهبة،الأدب المقارن،الشركة المصرية العامة للنشر،ط1، 1991،ص 15.

[4]. شربل داغل، التناص سبيلا إلى دراسة النص الادبي وغيره،مجلة فصول،مرجع سابق،ص 126.

[5]. محمد حطابي،لسانيات النص (مدخل إلى انسجام النص)،دار توبقال،الدار البيضاء،ط3، 1992،ص315.

[6]. محمد غنيمي هلال،الأدب المقارن،مرجع سابق، ص 13.

[7]. آمنة بلعلى،نظرية النص عند جوليا كريستيفا، مرجع سابق،ص77.

[8]. المرجع نفسه،ص77.

[9].عبد الملك مرتاض،فكرة السرقات الادبية ونظرية التناص،مجلة علامات في النقد الأدبي،النادي الادبي،جدة،ج1،م1 ،ماي 1991،ص 83،نقلا عن R. Barthes.le plaisir de texte.

[10]. عز الدين املناصرة، المثاقفة والنقد الأادبي،مرجع سابق، ص12.

[11]. شربل داغر، التناص سبيلا إلى دراسة النص الشعري وغيره،مرجع سابق،ص 127/126.

[12]. ميجان الرويلي وسعد البازغي،دليل الناقد الادبي— المركز الثقافي العربي،ط3، 2002، ص 33/32.